حلم الصغير ...

قصة بقلم سامي عطفة

« محمد ، يا محمد .. ! أين رحت يا صبي .. ؟! » وتلاشى الصوت الاجش المتعب في عتمة الكوخ الطيني وهمهم الشيخ العملاق « لو أن هذا الملعون هنا كنا عرفنا ماذا يحدث بينهم .. ! » ونململ في فراشه ثم راح يصغي . كانت اصواتهم تصل الى سمعه كدمدمة غامضة ، وفكر : كانما يتخاصمون .. ؟! كان في وسعه أن يميز تلك الصيحات العنيدة الغاضبة .. اما الكلمات ، تلك الكلمات الهادئة الرصينة ، وقد كانت تختلط في سمعه وتضيع .. نعم ، انهم يتجاوبون وتثاءب وهو ينظر بضيق الى الزاوية المعتمة ، هذه حقا هي صيحة ابراهيم ولده الاصغر . ابراهيم هذا في عينيه البنيتين ضراوة ذئب جائع وفي قلبه نعمة وحنق .. لا بد وانه يصيح في وجه اخيه مصطفى! مصطفى هذا ، ابو محمد مصطفى ، ولده البكر ، فيه رجاحة عقل الرجال وصلابتهم وحلمهم .. نعم ، هذا هو ولدي الحقيقي . واطلق الشيخ تنهيدة بينما راحت أصابعه الضخمة تمر على الحصير بحركة راعشة .. نعم ، هذا هو رجل الاسرة ، لن اخشى شيئا على الاسرة ما دام ابو محمد معها .. ولا على بنياتي المسكينات فانه يعطي البنيات قلبه اذا لزم الامر .. وسرت دفقة من الحرارة في الجسد العملاق ، فتوتب قلبه كان مشدودا بكل كيانه الى الخارج حيث تنطلق هذه الصيحات ، كان يود لو يرى كيف يقف هذان الولدان وجها لوجه وفي عيونهما الغضب والناس من حولهما يتأملان باعجاب لا حد له هذين الرجلين اللذين لم يعرف الفرات أشد منهما عزما . لكنه كان مقيدا الى هذا الفراش ، وهذه الزاوية ، ورفع رأسه قليلا ، ثم غمغم جازما وهو يريح رأسه على الوسادة : نعم الولدان يتجادلان .. وفكر وقد لاحت على شفتيه ابتسامة : فليتجادلا .. نعم ، فليتجادلا .. هذا شيء طبيعي ، مثل هذا الخصام شيء طبيعي بالنسبة لنا نحن الفلاحين ... شيء مألوف في حياتنا ان نختلف ونتصايح ... وأن نتخاصم احيانا من أجل لا شيء .. تماما من اجل لا شيء ، كما يفعل هذا الولد الارعن .. ابراهيم لا يريد ان يسقي القطن في هذه الساعة ... انه يعلم بالطبع ان هذا هو الوقت المناسب لسقايته ، كما قال له مصطفى .. ولكن ، ما دام مصطفى قد قال له : هيا ، هذا وقت السقاية ..! فان هذا الاحمق يريد أن يتأخر قليلا من الوقت ، نعم ، قليلا من الوقت ، ليثبت بذلك انه ليس في حاجة لوصاية احد حينما يتعلق الامر بهذا القسم من العمل الذي يخصه وحده ، فهو وحده الذي يعرف متى يجب ، ومتى لا يجب ، أن يروي القطن . هذه هي المسألة .. ابراهيم يريد ان يكون سيد نفسه حينما يؤدي عمله ... يريد ان يرى نفسه حرا في هذه اللحظات . ويتنفس الشيخ بعمق . نحن الفلاحين جميعا نعرف هذه الرغبة ، انها تلهب قلوبنا ، كل منا يقول لنفسه : لماذا لا تكون لي قطعة صغيرة من الارض !؟؟. لماذا لا تكون لي الارض التي ازرعها لنفسي ..! ولكن ، لن يكون له غير هذه الارض التي يزرعها من اجل سيدها .. ولن يكون له في نهاية الامر غير هذه الديون وغير هذا البؤس الخانق .. ولذلك فاننا كثيرا ما نتصايح ونتخاصم ونتظاهر بالقسوة .. ولكن سرعان ما تصفو الامور وتروق حينما نفسل كبرياءنا وتعاستنا ، فيجد الحب والمودة طريقهما الى قلوبنا ، نحن ، في الحقيقة ، لسنا قساة ، بل اننا مخلوقات مسكينة في منتهى الطيبة ، وانما حمية الشباب وعنفوانه واحلامه غير المحدودة هي التي تجعل ابراهيم يسرف في خصامه وقسوته ...

ولكن ..؟! ربما ، ربما كان الحب هو ما يدفعه الى كل هذه النقمة .. نعم ، ربما كانت سميرة هي التي تختفي وراء كل هذه المشاكسة العنيدة .. فلا بد وان يحس بالوحدة هنا بينما هذه الصبية الغضة بعيدة عنه في الجبل .. وطوح على شفتي الشيخ ابتسامة ، انه يحلم بها ، بعينيها العسليتين المشرقتين ، باغنياتها وهي تحتطب في الحرج غربي القرية .. وحينما يفكر في كل هذه المسافات التي تباعد بينهما؟.. حينئذ فانه ينفجر في وجوهنا .. ويقرقر الصدر العملاق بضحكة حدبى ، ثم يفكر بتأثر وحنو : يجب ان نفهم هذا الفتى العنيد الغاضب يجب ان نفهم مشاعره ، هذه الصبية الحلوة هي جنته الوحيدة التي يهرب اليها من بؤسه اليومي .. ومن دونها لن تكون الحياة في عينيه غير جحيم لا يطاق .. انه يحبها .. وتمر الاصابع الضخمة على الحصير بحنان بالغ ، ويهمس الشيخ بصوت متهدج ، وحق الله لن يتزوج منها رجل غيره ، ابدا لن يمسها رجل سواه .. غدا ، متى ما أعطت الارض خيرها ، سنرجع الى الضيعة ونأخذ له هذه البنية الحلوة ... والله لو كلفني ذلك كل موسمي فسوف آخذ له هذه البنية .. وحين يتزوج ابراهيم وينجب اولادا ، سترق طباعه ويصير كأخيه مصطفى ، رجلا ممتلئا بالاناة والطيبة .

وعاد الشيخ يصغي ، ولكن لم يكن ثمة غير الصمت يغمر العالم من حوله ، لا بد وانهم انفقوا وراحوا ، كل الى عمله ، هكذا تحدث الامور دائما ، تتجمع بعض السحب فيكفهر وجه السماء وترعد الدنيا ثم تتلاشى السحب ويعود الى الدنيا صحوها وصفاؤها ... وانطلق عصفور يفرد بفرح وزهو وراح الشيخ يصغي اليه وقد امتلأ قلبه بالبهجة ، وتدفقت الدماء الحارة في شرايينه ، وشعر بان جسده المريض المنصلب قد صار أكثر طراوة .. لو كان في وسع الانسان ان يسير ، نعم ان يسير قليلا ويخرج الى الشمس ..! لا بد وان يبدو العالم جميلا .. حقا .. بعد ثلاثة أشهر من الرقاد في هذه العتمة ، لا بد وان تبدو السماء والحقول والنهر وكل الاشياء على غاية من الجمال . وتخيل نفسه حينما كان يقف على ضفة النهر معتمدا على عصا الفأس لينعم بلحظة من الراحة وهو يدخن سيجارته .. حلوة كانت تلك اللحظات ، ما أجمل ان يتأمل الانسان صفحة الفرات العظيم وهي تتلألأ تحت شمس آب ، تماما في مثل هذه الايام ، وليس ثمة غير هذا النهر يشق السهول الترابية موغلا نحو الشرق وعلى ضفته من الجنوب ترتفع التلال الجرداء بصمتها وخضرتها الكابية ... وهنا في الجزيرة هذه الحقول النضيرة .. ثم هذا الحلم الذي يملأ قلبك بانك أتيت الى هذه الارض من قرية بعيدة كي تصنع حياة اكثر سعادة لك ولاطفالك .. حقا ما أجمل هذا كله ، ما أجمل ان يكافح الانسان ليجعل الدنيا اوفر سعادة !.. وسرت رعشة حارة في جسده تتحامل على نفسه ونهض قليلا معتمدا على ساعديه ، ولكن خدرا مؤلما جعله يترنح ويتهادى على فراشه .. ونظر الى الشعر الاشيب الكثيف الذي يغطي صدره العريض فاحس بالحسرة تخترق قلبه .. كيف قدر لهذا الجسد العملاق ذي القدرة الخارقة ان يقعد عاجزا في هذه الزاوية ؟.. وأحس بغصة ، حقا ، كيف قدر له ان يصبح عاجزا لايقوى على الوقوف وهو الذي كانت الارض تهتز تحت قدميه اذا سار .. هو الذي كانت الصبايا تعشقه .. هو الذي ما عرفت هذه السهول لا أقوى ولا أنضر منه .. هو الذي كان فيما مضى يستطيع بيد واحدة

أن يقتلع سنديانة من جذورها ، نعم .. من جذورها ..؟! ترى أقذف به الى هذه الارض كي يموت فيها غريبا ، بعيدا عن تلك الارض التي نبت فيها والتي يحس عطرها وشذاها مع كل خفقة من خفقات قلبه ؟.. كي يموت كالجرذ في عتمة هذا الكوخ الطيني من دون ان يحقق الحلم الذي ضمه بين جناحيه كل هذه السنين ، من دون ان يتحرر من ظروف حياته البائسة ، من دون ان تصبح له قطعة ارض صغيرة ؟.. ورفع يده ثم راح يتأمل ساعده العاري ، انه ما يزال ممتلئا ولكنه مع ذلك خائر العزيمة .. ـ لا ، لن يكون هذا ..! همس الشيخ بعمق ، وربي لن أموت كالجرذ هنا ، سأحيا ، نعم سأحيا ، لارى تلك الخرنوبة أمام بيتنا الجبلي .. لازوج هذا المصروع ابراهيم .. وحرك رجله اليمنى فاستجابت له ، الحالة الان افضل ولن يطول الامر حتى انهض ، نعم سأنهض ، قليلا من الارادة الصلبة ويسير كل شيء على ما يرام .

كان الشيخ يحس في تلك اللحظة بانه يمتلك قدرة لا حدود لها ، يجب الا يستسلم الانسان للضعف ولا للمخاوف ، مادام الانسان يملك القدرة على التحرر من الضعف فلماذا يستسلم له ..؟! وعاد الطائر المزهو يردد اغنيته ، وحملته الاغنية العذبة الى حقول القطن خارج الكوخ حيث أسرته غارقة في العمل اليومي والعرق .. ان له في الحقيقة ، أسرة لا تجاري في حيويتها ودأبها .. أسرة فيها عزم تلك الجبال وعنفوانها .. حتى العجوز النحيلة المسكينة ، العجوز الطيبة التي انجبت له مصطفى وابراهيم والبنيات ، كانت تعمل في الحقل طيلة يومها .. ونخيلها وهي تنحني بجسدها الواهن لتقلع الاعشاب الغريبة من التربة ، وقطرات العرق الحارة تنعقد على جبينها المتفضن .. كذلك الصبايا ، البنيات الثلاث ، فانهن يشتغلن بحيوية وشغف .. وكذلك ابنته الكبرى حسنا وزوجها .. يمكن لحسنا ان تترك الطفلين يلعبان على المرج الصغير في رأس الحقل ، ولكن ، كما قال لها في الصباح ، يجب ان لا تغفل عنهما ، وان لا تدعهما يقتربان من السافية الرئيسية التي تمر في طرف الحقل ... فحياة الطفلين أثمن من كل شيء .. يجب على افراد الاسرة ان يعملوا كيلا نضطر الى استخدام العمال ، فنحن لسنا من اولئك الفلاحين الكسالى الذين يدفعون كل ما تنتجه الارض أجورا للعمال .. لا ، لسنا من هؤلاء الفلاحين ، فنحن نريد كل فرش عرقنا من اجله ، نريد ان نجني كل ثمار تعبنا ، فبعد ان يأخذ صاحب الارض حصته وديونه يجب ان يبقى لنا ما يكفي كي نشتري مؤونة وثيابا ، ثم اننا سنزوج ابراهيم ، ويجب أن ندخر قليلا من المال كي نشتري فيما بعد قطعة من الارض .. طبعا لن يتم ذلك في هذه السنة ولا في السنة التالية ، ولكن اذا أتت مواسمنا جيدة فسنتمكن اخيرا من ان نشتريها .. ومن اجل ذلك يجب الا نستخدم عمالا .... فمن العار ان ندع يدا غريبة تمتد الى الحقل .. لا تدعوا يدا غريبة تمتد الى حقلكم بينما تقعدون انتم ، لا تستخدموا عمالا ابدا .. هذا ما قاله لهم في هذا الصباح . وقد أجابه ابو محمد بحزم ورزانة : « لا يا ابي ، لن نستخدم ابدا اية يد غريبة ، يمكنك ان تثق بهذا يا ابي ، سوف نخدم ارضنا بايدينا .. »

نعم ، هذا ما قاله هذا الولد الطيب .. أما تلك العجوز المسكينة ، فما كان يجب ان تدعها تذهب معهم ، لقد أصبحت خرقة بالية لا تقوى على شيء .. وفي ذات يوم سوف تسقط ميتة في الحقل اذا استمرت الحال هكذا .. كانت مشاعر الشيخ تتجه نحو زوجته المسكينة ، فقد كان يحس نحوها بكل حنان قلبه ورحمته. لقد كانت رفيقة حياته .. وقد وهبته كل ما في حيانها : حبها وحنانها وتفانيها ، رغم انها كانت تعرف كل شيء .. كانت تعرف انه لم يهبها من قلبه غير العطف ، أما حبه فقد كان لامرأة أخرى ، لصبية ذات عينين تتألق فيها خضرة المراعي ونضارتها ورقتها ... لزاهية .. اجمل فتاة عرفها الجبل .. ومع ذلك فقد كانت العجوز كريمة دائما ، متفانية دائما .. دائما كانت الزوجة الوفية الصالحة لقد كافحت هذه المرأة معه وتألمت ، وصبرت على البؤس .. وها هي تعرق في الحقل كصبية صغيرة .. من أجل هذه العجوز ، من اجل الالام التي حملتها في قلبها كل هذه السنين لا بد وان يبارك الله لهم في عملهم .. أولا تستحق الارادة الطيبة هذا القدر اليسير من عناية الله ؟. تبارك الله ، انه واسع الرحمة ، لا بد وان ينظر الينا من عليائه ويقول : واخيرا ستكون لهؤلاء المساكين فرصتهم الموعودة فقد تعذبوا طويلا .. وهتف الشيخ بحرارة : نعم ، لا بد وان تكون لكل انسان فرصته الموعودة .. ثم فكر ، أما العجوز الطيبة فيجب الا تعمل بعد اليوم . سأقول لها حينما ترجع : من غير الواجب يا ام مصطفى ، أن تذهبي للعمل في الحقل بعد اليوم ، ليس هناك ما يدعو الى كل هذا التعب .. دعيهم يعملوا وحدهم ، أما انت فقد صار يحق لك ان تنالي نصيبك من الراحة ..

وترافص شعاع ساطع على العتبة ، ثم تسلل بأناة ودعة الى داخل الكوخ بينما راح الشيخ يتأمله بفرح واعجاب وكأنه يستقبل زائرا عزيزا . وترافص الضوء على الجدار المطروش بالحوارة ، فأحس الشيخ بالرغبة في الخروج الى الشمس .. وهتف بقوة وحزم : « محمد ، يا محمد .. اين انت يا ولد ؟؟. »

وانبثق صوت الولد مذعورا وهو يدخل الى الكوخ : « نعم يا جدي ، نعم .. »

فتأمله الشيخ لحظة ثم قال وفي صوته رنة عتب : « تأخرت طويلا يا ولد ، أين كنت .؟! »

وتأمل الصبي الكوخ ثم قال برزانة : « كنت هناك يا جدي ، كنت عندهم ... »

وارتفع الصوت الاجش معاتبا : « ... ونسيت جدك يا ولد ؟»

وأكد الصبي بحمية : « لا يا جدي ، لا .. اعوذ بالله !.. »

وسأل الشيخ حفيده وقد عاد اليه الرضى : « يخيل الي اني سمعتهم يصيحون .. هل كان ابوك وعمك يتجادلان كالعادة ؟.. »

ـ نعم يا جدي ، لقد كانا يتجادلان ..

ـ من أجل سقاية الارض كالعادة .. أليس كذلك يا محمد ؟..

ـ نعم يا جدي ، بسبب سقاية الارض ..

وقال الشيخ جازما : « نعم ، نعم .. عمك ابراهيم لا يريد مشورة من أحد ، يعني ، هو لا يريد من أي انسان ان يقول له : قم بهذا العمل على هذه الصورة .. قم به تماما هكذا !.. عمك يا بني يريد ان يكون حرا .. ان يكون سيد نفسه .. وهو محق في هذا لولا ان يبالغ في الصخب قليلا ، أليس كذلك يا صبي ؟.. »

ـ هذا صحيح يا جدي فهو يصيح كثيرا !..

ـ اسمع يا بني .. عمك ابراهيم يبالغ فعلا في اظهار قسوته ولكنه في حقيقة الامر ليس سيئا .. انه يقسو لانه لا يريد ان يشعر بالخضوع لاي كان ، ولانه يحس في أعماق نفسه بانه خاضع لصاحب هذه الارض وانه ليس حرا .. تماما كما نحس نحن .. ولذلك فهو يخاصم والدك كما نفعل نحن جميعا .. هذا ما يجب ان تعرفه انت ايضا يا صغيري .. يجب عليك ان تعرفه جيدا لانك ابني ، لقد خلقك الله على صورتي ، فانا ابوك الحقيقي ، ولذلك يجب ان تحفظ في قلبك كل ما أقوله لك ..

ـ نعم يا جدي ، سأحفظه في قلبي ...

قال الجد في حزم : « ولكن يجب ان يعلم عمك ابراهيم بان والدك الطيب لا يفرط في شيء .. ابوك يريد ان يؤدي العمل كما يجب ان يؤدى .. وهذا ما يفعله الرجل العاقل .. ابوك لا يضمر لعمك ابراهيم غير الحب ..

فهتف الصبي بحرارة : « نعم يا جدي ، انه لا يضمر له غير الحب ... »

قال الجد جازما : « ولذلك فما يكاد عمك يثور حتى يهدأ كالحمل الوديع ، لم أعد اسمع صياحه ، وهذا يعني انهما اتفقا وان كل شيء يسير الان على ما يرام ، كما يحدث دائما ؟..

ـ نعم يا جدي ، كل شيء يسير الان على ما يرام ..

« هذا حسن ، كل ذلك حسن .. » قال الشيخ معقبا وهو يتأمل الصبي بعينيه الكبيرتين ، ثم هتف بحرارة : « تعال يا صغير .. اقترب وحدثني عن زرعنا .. قل لي : كيف غدت حقول القطن وكيف حال السهول والشمس .. والنهر ؟.. ثلاثة أشهر مرت علي ولم أر الدنيا فيها .. ثلاثة أشهر يا صبي .. !»

واقترب محمد فجلس القرفصاء على طرف الحصير قريبا من الشيخ ، وقال بنغمة حالمة وهو يحدق في فراغ الكوخ : « حقولنا هائلة يا جدي ، القطن فيها كالاشجار .. اذا سار الرجل فيه لا يظهر منه غير رأسه .. »

وهتف الشيخ مقاطعا بنغمة مزهوة : « عظيم ، عظيم ما تقوله يا صبي !.. »

وتابع محمد بلهجته الحالمة : « .. والسماء رائعة يا جدي .. سماء بلون الورد تتألق فيها شمس وهاجة .. والقطن ينمو وينمو.. وعلى ضفتي النهر في كل الحقول يغني الفلاحون يا جدي .. وفي أغنياتهم بهجة لا حد لها .. »

وعقب الشيخ : « نعم يا صغيري ، يحق للفلاحين ان يفرحوا اخيرا يحق لهم ان يفرحوا .. »

وهمس الصغير بلهجته الحالمة : « ويرجع النهر اصداء اغنياتهم .. فيتهادى بين الحقول حاملا الخير الى كل مكان .. ستعطي الارض الكثير في هذا الموسم .. ستعطي الكثير .. هكذا يقولون .. »

وهتف الشيخ مزهوا : « واذن فلقد جادت علينا السماء .. جادت علينا بعد انتظار طويل !.. اذن سنطرح بؤسنا يا صغيري.. سنطرحه ونتخلص من تعاستنا .. تباركت السماء .. » وتأمل الصبي لحظة ثم أضاف : « الان نستطيع ان نوفي عمك ابراهيم حقه .. سوف نأخذ له سميرة في نهاية الموسم .. »

وسكت الشيخ لحظات قليلة راح اثناءها يتأمل الطفل بحنان بالغ ، ثم هتف بعمق وحرارة وعيناه ما تزالان معلقتين به : « اقترب يا ولدي ، تعال .. » ودنا الوجه منه ، كان وجها حلو الملامح تتألق فيه عينان من الفيروز الصافي تحت خصلات من الشعر الاسود متناثرة على الجبين ، وتتفجر فيه حيوية الرابعة عشرة ونضارتها . ورافقت يد العملاق ببطء الى الوجه الصغير وراحت الاصابع الضخمة تمر على الجبين والوجنتين الطريتين بحركة راعشة ... ومرت لحظات من الصمت ، ثم همس الشيخ العملاق بحرارة : «هانان العينان .. دعني أر نورهما الحلو .. ففي هاتين العينين أرى ذاتي أرى كل الاحلام النضيرة القويمة التي اختلج بها قلبي .. أوه ، كم فيهما من الاحلام .. لا ، لا يمكن لاية عينين جميلتين ، ولا حتى لعيني ابيك ، ولا حتى لعيني أجمل الصبايا واحلاهن ان تشرقا بكل هذا السحر .. بكل هذه العذوبة .. ففيهما يتألق الفجر الذي كنت أبحث عنه جاهدا .. الفجر الذي قضينا حياتنا في بحث مضن عنه ماذا ..؟ من هم هؤلاء ؟.. وتعود يد الشيخ لتستقر على صدره.. اوه .. انهم : جدي ، وابي ، وانا جدك ، ثم ابوك الطيب !... سلسلة طويلة من البشر ، من مساكين البشر الذين شقوا كثيرا ، وتألموا كثيرا .. هذا ما يجب ان تعرفه ، ان تضعه في قلبك وتذكره دائما ... يجب عليك ان تذكر دائما لانك ابني ، وعلى صورتي خلقك الله .. انك الوحيد الذي يشبهني بين افراد الاسرة كلها .. نفس العينين .. نعم ، حينما كنت في الرابعة عشرة كانت لي نفس هاتين العينين .. والروح نفسها .. ونفس احلام الصبا التي لا حد لروعتها ... أوه ، انت تريد أن تسألني : لماذا يحلم الناس !.. كل الناس البائسين يحلمون ايها الصغير !.. لقد ضيع البؤس حياتهم وانهكها، وانهم يريدون ان يعودوا ثانية بشرا حقيقيين وسعداء .. ولذلك فانهم يحلمون .. لان الانسان اذا رضي ببؤسه فهذا يعني أنه قد صار بهيمة .. ولكن ما دام الانسان يحلم .. ما دامت الاحلام نحيا في قلبه فان البؤس لن يصيره بهيمة ابدا ..

وسكت الشيخ لحظة كان يبدو خلالها وكأنه راح في اغفاءة ثم عاد يقول بصوت عميق هادىء : ـ « وانا ايضا كانت لي احلامي.. بل لقد كانت حياتي كلها سلسلة من الاحلام .. انظر : حينما كنت ما ازال صغيرا ، في سنك تقريبا ، كنت اتطلع الى الارض من حولي ، الى الذرا الفتية الشامخة والوديان الرهيبة والكروم المتدرجة على السفوح ، ثم اقول لنفسي : هذا كله خلقه الله من أجلي !.. لقد خلق الله الارض من اجلي .. هكذا تماما ، ومنذ ذلك الوقت بدأت الاحلام في حياتي .. كنا حينئذ ما نزال بعد في تلك القرية الجبلية ، ما اجمل قريتنا الجبلية يا صغيري .. انك لم ترها بعد فقد شاء الحظ ان تولد انت هنا على شاطىء الفرات العظيم .. قريتنا تلك تشبه عش النسر ، تقع على ذروة الجبل ويلفها خمائل وخمائل من العرائش واشجار الجوز والتين والرمان . وبيتنا هناك يطل على واد عميق فسيح تغطيه اشجار الزيتون . وكنت منذ صباي ، اشتغل من شروق الشمس حتى مغيبها في البستان وكرم الزيتون .. اوه ، العمل في الجبال صعب يهد الجسد .. عليك ان تحمل فأسك طيلة اليوم ، فالارض تحتاج الى حفر والنباتات البرية التي تقطعها لا تلبث حتى تعود كثيفة نامية .. ثم انك تشتغل اياما واياما في تنظيم بستانك .. ولكن ، في يوم واحد فقط ، تقذف السيول اليه بأكوام واكوام من الحصا والحجارة ، وتخرب السياج ، وتهدم جدران الحيارة التي قضيت اياما واياما في بنائها .. وحينئذ يجب عليك ان تبدأ من جديد لتصلح كل شيء .. هنالك دائما ما يجب عمله .. ومع ذلك فارضنا هناك لم تكن تعطي الا بعسر وشقة .. وكان يتحتم علينا ان نعمل طويلا حتى نحصل على لقمة بسيطة .. وكان الجوع يترصدنا في كثير من الايام .. اننا لم نكن في الحقيقة غير فلاحين مأجورين فقراء ... لم نكن سوى فلاحين بؤساء .. ولكن ، كنت ما ازال في ميعة الصبا لقد كان لي ساعد أقوى من الفولاذ وظهر لا يتزعزع .. وكنت بيدي هذه استطيع ان أقتلع سنديانة من جذورها .. كنت رجلا حقيقيا له قلب كالصوان وعزيمة لا تقهر .. وكنت اقول لنفسي : مهما تكن حياتك الان قاسية فلا بد وان تصنع منها شيئا اعظيما ... كنت اؤمن انني ، بطريقة ما ، سأنشيء لنفسي حياة حسنة ، حياة فيها خبز نظيف وسعادة .. هذا ما كنت أفكر فيه وانا اجلس على الحصير تحت الخرنوبة الشامخة الملتفة التي تنتصب أمام بيتنا، كنت افكر في ذلك وانا اتأمل زاهية التي كانت تجلس مسندة ظهرها الى جذع الخرنوبة ، ـ ما الذي يمكنك ان تفكر فيه حينما تجلس تحت تلك الشجرة لتستمع الى أغنيات الريح العذبة الخافتة

اخر منشورات دار الاداب

ق. ل

- اعياد (قصص) لعبد الله نيازي ٢٥٠
- لا بحر في بيروت « لغادة السمان ٢٥٠
- الظمأ والينبوع « لفاضل السباعي ٢٥٠
- حتى يبقى العشب اخضر لاديب نحوي ٢٠٠
- ثورة الفقراء لرجاء النقاش ٢٠٠
- سلطنة الظلام في مسقط وعمان لعوني مصطفى ١٥٠
- كامو والتمرد ترجمة سهيل ادريس ١٥٠
- قصص كامو ترجمة عايدة ادريس ٤٠٠
- البلد البعيد الذي تحب (قصص) لديزي الامير ٢٠٠

وانت تتأمل زاهية ؟!.. وانت تتأمل عينيها اللتين يشرق فيهما سحر الخمائل الخضر !؟.. من اجل زاهية كنت افكر في انني لا يمكن ان اعجز عن اي شيء ، وانه لا يوجد شيء يستطيع ان يحد من ارادتي .. وكانت هي ايضا تداعب حلمها وعلى شفتيها الطريتين بسمة مشبعة بالامل .. لم تكن زاهية تتكلم كثيرا ، ولكن قلبها كان مليئا بالكلمات ، كنت أنفذ الى قلبها ، الى احلامها وانا أصغي الى أغنية الريح التي تهمس بها أغصان الشجرة ..

« ثم .. اتى يوم رحلت فيه زاهية عن القرية .. اخذوها لرجل اخر .. ومنذ ذلك اليوم أحسست اني وحيد .. وان اجمل أيام الصبا قد ضاعت مني .. لقد التقيت بجدك الطيبة وبدأنا حياتنا معا .. وكانت هذه المرأة تتعب طيلة يومها متحملة الشقاء بصبر وشجاعة .. ولكن ، لا البؤس ولا التعب استطاعا ان يطفئا من عينيها تلك الشعلة الرائعة من الحنان والعطف .. ما اكرم الصلب الذي انبت هذه المرأة .. ! لقد كانت لها دائما عزيمة الرجال .. ! ولكن .. كانت صعوبات حياتنا تزداد يوما عن يوم .. كان علينا ان نكافح السيول وتلك الطبيعة الجبلية المتوحشة الفاضبة ، ثم ذلك القحط الذي حل بالارض .. كان علينا ان نكدح طيلة اليوم ، ثم كان تعبنا يذهب في النهاية بلا جدوى .. كان الامر يبدو وكان سوء حظ اعمى بدأ يطبق على حياتنا .. فقد اخذ الكرم يجف ويذوي .. ودأت السيول تجرف التربة من بستاننا فلا تترك فيه غير الحصى والصخر .. وفي ذلك الوقت قال لنا صاحب الارض : هيا أتركوا كرمي ، واتركوا بستاني .. انتم شؤم وقد خربتم ارضي ، لا اريدكم بعد اليوم عندي .. !

« احسست حينئذ يا صغيري ، كأنما سلبت حياتي مني .. لقد ولدت في هذه الارض ، وكنت منذ صغري اعمل فيها .. كل شبر منها يحمل اثارا من يدي هاتين .. وكنا رغم كل شيء ، رغم القسوة ، قد الفنا بعضنا . لقد كانت تلك الارض تعني الكثير الكثير بالنسبة لي .. ولم يكن من العدل ان تنتزع مني بكل هذه البساطة .. لكن تلك كانت حقيقة .. وكان ينوجب علي ان اعرف هذه الحقيقة وهي ان الارض لا بد وان تنتزع منك بكل بساطة اذا لم تكن انت الا فلاحا اجيرا فيها.. وبدت الحياة لي حينئذ على غاية من القسوة .. كان كل شيء يخوننا ويتخلى عنا : الحظ ، والارض ، وصاحب الارض ... وكان الالم والغضب يعتصران قلبي .. لكنني قلت لنفسي : حسنا .. ان ارض الله واسعة، والانسان لا يموت ابدا في الارض اذا كان يملك عزيمة صلبة .. وقال لي اخي : والان ماذا يجب ان نفعل .. ؟! قلت : يجب ان نرحل ، يقال ان في الفرات اراضي جيدة ، خصبة وواسعة .. وان الفرصة متوفرة هناك لكل انسان .. فقال اخي بتأثر بالغ : انا لن اترك هذه القرية ، لقد عشنا هنا ، وكانت لنا فيها طفولة وحياة وامال .. فكيف تريدني ان اتخلى عن كل شيء وارحل .. ؟! لا ، اذ لن اذهب ، توجد هنا قطعة ارض ، وسأتفق مع المالك على زراعتها .. انها ليست جيدة ولكنها افضل من الرحيل .. فقلت له : تبا للارض هنا .. لقد خسرنا كل شيء في هذه القرية ، وسوف ارحل .. سابحث في كل الارض عن حياة جديدة .. قال : ارحل وحدك اذن ... !

« وهكذا يا بني .. بقي اخي هناك في القرية .. واتينا نحن الى هذه الارض ... ولقد مضى علينا زمان طويل ونحن نتعب هنا .. لقد تعبنا طويلا . من دون ان نظفر بشيء .. فقد كانت الارض شحيحة دائما ... ولكن ها نحن اخيرا نثبت اننا لم نخب .. لقد نجحنا ،ففي هذا الموسم المبارك سنتخلص من الفقر والديون .. نعم ايها الصغير.. لقد نجحنا اخيرا .. » .

كان الزهو والبهجة يلوحان على وجه الشيخ وهو يتكلم ، وهتف الصبي والدمع يجول في عينيه : نعم يا ابي .. لقد نجحنا اخيرا .. لقد نجحنا .. وارتعشت شفتا ه الصغيرتان .. كان وجه العجوز العملاق يتراءى له من خلال الدموع غارقا في نشوة عارمة .. ولاول مرة استطاع الصبي ان يرى في عينيه كل هذا البريق .. ولاول مرة ، منذ اشهر ، استطاع العملاق المتهدم ان ينهض من رقدته ، فجلس في فراشه وطاف ببصره في الكوخ . لا بد وان تكون الشمس الان جميلة ، شمس آب جميلة دائما ، ثم .. اوه ، هذه هي القبرة تشدو ، قبرة الحقل لا تغني بكل هذا الاتقان الا اذا جاءت المواسم .. اسمع يا صبي، الا ترى كم ساحر غناء هذه القبرة .. ؟! ولكن ما هذا .. ؟! انك تبكي يا صبي .. ! انني ارى الدمع في عينيك .. ؟! » .

وارتعش صوت الصبي ، وهتف وقد اصطنع الابتسام : « انني سعيد يا جدي .. اني سعيد .. فلدينا خير كثير ... »

وصاح الشيخ مندهشا : « ومن اجل هذا انت تبكي .. ؟! من اجل هذا تبكي كالبنيات الصغيرات السخيفات .. ! لا تكن سخيفا يا صبي! .. امسح عينيك ، هكذا .. يجب الا تبكي ابدا مثل البنيات ولا حتى اذا كنت سعيدا .. جدك لم يبك في حياته ابدا .. ارني هذه الضحكة .. نعم ، اوه ، كم انت رائع بضحكتك هذه .. سوف نشتري لك فستانا جديدا .. فستانا جديدا يا صبي .. !

فهتف محمد وعلى شفتيه ابتسامة : وبذلة يا جدي .. !

فاكد الشيخ : وسنشتري لك بذلة مثل تلك التي يلبسها الاولاد في المدن ..

ـ وحذاء جديدا يا جدي .. !

ـ نعم ، وحذاء جديدا ايضا .. سنشتري لك كل ما تطلبه ، وستلبس كل هذه الثياب الجديدة الحلوة في عرس عمك ابراهيم ... ولكن .. ؟! ، راح الشيخ يصغي باهتمام ثم هتف مندهشا : « ولكن ، ما هذا .. ؟! يبدو انهم قد عادوا الى الخصام .. ؟!؟ » ثم اخذ يصغي وقد ظهرت على وجهه علائم الدهشة والاستنكار .. بينما راح الصبي يراقبه وقد ظهرت على محياه علائم القلق ..

وهتف الشيخ وقد ارتعش صوته من الغضب : « اسمع .. ! هذا هو عمك ابراهيم يصيح .. ؟! لماذا لا يريد هذا الاحمق ان يكف عن الصراخ .. ؟! هذه رعونة .. ! اوه .. حقا لا يمكنني ان احتمل كل هذا الصراخ .. ؟! هل تستحق السقاية كل هذا الخصام .. ؟! ان الرجل الذي يصرخ هكذا لن يكون في الحقيقة رجلا ، وكان يجب على والدك ان يدع هذا المجنون ليقوم بعمله كما يحلو له .. ناولني هذه العصا يا صغير .. لا بد وان اخرج فورا لارى ماذا حدث لهما ... هات العصا .. » .

وظهر القلق بوضوح في عيني الصغير ثم هتف بوجل : « لا يا جدي ، لا تزعج نفسك .. ساذهب انا واقول لهما : جدي يريد منكما ان تسكتا .. اما انت يا جدي فيمكنك ان ترتاح في فراشك ، انني ذاهب يا جدي ، فلا تتعب نفسك .. »

ونظر الشيخ الى الصبي الذي وقف متأهبا للخروج ، وقال بلهجة عاتبة : « لا اتعب نفسي .. ؟! قلت لك ناولني هذه العصا وكذلك القنباز والمنديل .. وسوف ترى أن جدك ليس عاجزا .. لن احتاج الى غير هذه العصا لاتمكن من السير بكل بساطة .. واذا اقتضى الامر فسوف اعتمد قليلا على كتفك .. » .

قال الصبي برجاء حار : « لا يا جدي ، لا .. لا تخرج بحق الله!»

وصرخ الشيخ غاضبا : « قلت لك ناولني هذه العصا .. ! ماذا بك ، هيا .. ! »

مكتبة عبدالقيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

وامتثل الصبي فاحضر القنباز والمنديل والعصا التي اعتاد الشيخ ان يتوكأ عليها قبل مرضه ، فدفع الشيخ الغطاء عنه وارتدى القنباز ثم لف رأسه بالمنديل .. وتنحنح ثم نظر الى الصبي فالفاه يحدق في الفراغ بنظرة ذاهلة ، فانتهره : « ما بك يا صبي .. ؟!؟ »

فاجفل محمد واستدرك : « لا شيء يا جدي ، لا شيء ... »

قال الشيخ : « هيا اذن ، لنخرج ... » ثم نهض من فراشه بصعوبة بالغة معتمدا على عصاه الضخمة ، وترنح العملاق ، وكاد يهوي لولا انه اسرع يعتمد بيده الثانية على الجدار . وانقضت لحظات كان اثناءها يقف متصلبا كتمثال خال من الحياة ، ثم اختلج وهتف بصوت عميق حار : « حمدا لك يا الهي .. » وكان محمد يقف قريبا منه ،فمد يده واعتمد على كتفه ، وحينئذ صاح بزهو وهو يخبط الارض بعصاه : « والان .. ايها الصغير .. دعنا نخرج .. » .

وسارا بخطوات بطيئة ، كان الشيخ يجر قدميه جرا متثاقلا .. ونريث لحظة على عتبة الكوخ حيث راح ينقل بصره بين السماء والحقول والنهر وقد اختلج وجهه انفعالا ، وهمس بصوت نشوان : « ما اجمل الدنيا .. ! حمدا لك يا الهي .. » كانت صفحة النهر الرمادية تتزاقص متلالئة في الضياء الساطع ، وبدت له السهول اكثر رحابة .. ولكن سرعان ما لفتت نظره نبتات القطن الذابلة ، فقال بانزعاج : « هذه هي العادة ، لا يكاد الزرع ينبت قرب المساكن حتى يهمل ، فتدوسه الارجل وتتلفه الماشية ، ولا تصل اليه مياه الساقية .. كان يتوجب عليهم ان يعتنوا بهذا الزرع ... » ونظر حوله ثم اضاف متعجبا : « ولكن اين هم .. ؟!؟ ها .. ! لقد ابتعدوا قليلا ، دعنا نلحق بهم .. ولكن ، ما الذي جرى .. ؟! هناك كثير من الناس .. ! »

وابتعد قليلا عن الكوخ ، فلاحظ الشيخ مرتاعا وهو ينظر الى نبتات القطن الذابلة : « ما هذا يا ولد .. ؟ القطن يابس كله في هذه القطعة .. ! هذا اهمال ، اهمال بشع .. ! سيضيع قسم كبير من المحصول .. ! » .

ثم توقف لحظة وراح ينقل بصره بين جنبات الحقل ، كان القطن كله جافا ، ميتا .. ولم يقل الشيخ شيئا ، وانما سار صامتا وكانت خطواته في هذه المرة اسرع واقوى ، واخيرا توقف امام الجمع . كان هناك ولداه وصاحب الارض وغرباء في ثياب رسمية نظيفة ، وفلاحون من الجوار .. بينما وقفت النساء على مقربة من الجمع يراقبن ما يحدث .. كانوا جميعا ينظرون الى الشيخ صامتين وقد ارتسم القلق في عيونهم .. لكن الشيخ لم يكن يعبأ بهم ، فقد راح يتأمل الحقل الذابل بنظرة مفعمة بالغضب واليأس .. ثم التفت الى الجمع وراح يتأملهم واحدا واحدا بتحد وتصميم .. واخيرا سأل بصوت رن فيه القسوة : « من الذي فعل بنا ذلك .. ؟! » .

ولم يجب احد منهم . فقد اخذوا يتبادلون نظرات تنم عن التوجس والقلق .. واقترب من ولده البكر مصطفى وقال وهو يتأمله بنظرة صارمة : « لقد سألت : من فعل بنا ذلك .. ! » ولم يجب مصطفى ، وعاد الشيخ يسأل ، وقد غدا صوته هادئا عميق النبرة : « هل يمكن ان تكون انت .. ! لكن .. لا ، لا يا ولدي .. لا يمكن ان تكون انت قد قصدت ان توقع بنا كل هذا الخراب .. ! » وارتعش الصوت : « لقد كنت دائما ولدي العاقل . ولدي الحكيم » وراح ينظر الى ابراهيم : « ولا انت ايضا ايها الاحمق .. انك اكثر طيبة وبراءة من ان تجر كل هذا الدمار على نفسك .. ! »

وراح ينظر الى الارض بانكسار ثم همس بصوت مضعضع : «كيف امكن ان يحدث كل هذا ، بحق الله كيف امكن .. ؟! لقد كانوا يقولون لي ان كل شيء في غاية الجودة ... ! »

وارتفع صوت مصطفى الهادىء : « لم ترو الارض يا ابي ، منذ اكثر من شهر لم نرو ... »

وانفجر صوت ابراهيم الغاضب فقال مشيرا الى مالك الارض : « كان يتوجب على هذا الرجل ان يصلح المحركات .. قلنا له مرارا : ان القطن يحتاج الى السقاية .. لكنه لم يكن يهتم بذلك .. يجب ان يدفع لنا تعويضا عن الاضرار ... »

وقسا صوت الشيخ : « تعويضا عن الاضرار ..! وما فائدة ذلك ؟! .. تريد تعويضا عن الامال التي حملتها في قلبك كل هذه السنين ..! ايها الاحمق .. ! »

واتجه الى مالك الارض فتأمله بقسوة وصرامة ثم قال بصوت مليء بالكراهية : « اذن .. انت الذي جلبت لنا كل هذا الدمار .. ! انظر . كل هؤلاء كانوا يخدمونك بعرقهم ودمائهم .. كانوا يعطونك قلوبهم .. فما الذي فعلناه من سوء حتى تخوننا .. ؟! لقد دمرتنا .. واني امقتك من كل قلبي .. اني اكرهك .. !

وقاطعه موظف برزانة : « مثل هذا الكلام لا يجوز يا سيد .. لا يجوز النطق بكلام كهذا امامنا .. نحن موظفون يا سيد .. ! »

وتأمله العجوز ببرود وقال :«انا لا يهمني من تكونوا يا سيدي..!» ثم التفت الى مصطفى وسأله معاتبا : « لماذا لم تخبروني .. ؟! »

ونظر مصطفى اليه بحيرة : « يا والدي ... ! »

وتأمل ولده لحظة ، ثم راح يحدق في الارض بمرارة وانكسار .. وارتعش الجسد العملاق وهوى ممددا على الارض كجذع سنديانة ضخمة. كانت عيناه مغمضتين وصدره يختلج ، واكب الجمع عليه فهمس مشيرا اليهم : « ابتعدوا .. ! » ثم اشار الى محمد هامسا بعذوبة : « تعال يا ولدي .. »

واحتضن محمد الرأس المتغضن المتعب بحرارة ثم اراحه على ركبته .. وهمس الشيخ برقة وعذوبة : « انا انتهيت يا محمد .. » واضاف بحسرة : « لقد انتهيت .. ! » ورفع يده الى الوجه الصغير ليمر باصابعه المرتعشة على الجبين الغض .. وهمس بحرارة : « لقد انتهيت انا يا ابني .. لقد حلمت باشياء كثيرة ، باشياء حلوة وعظيمة .. وقد تعبت كثيرا .. وقد جاء دورك انت .. انت ابني وفي عينيك الصافيتين ارى كل احلامي .. يجب عليك ان تحفظ كل ما قلته لك في قلبك وان تذكره .. لانني ساحيا في قلبك كلما تلألأت الاحلام في عينيك ..

وارتعش الصوت العذب ثم تلاشى .. وانهارت اليد العملاقة .. واكب الصبي على عنق جده ينشج بمرارة ..

سامي عطفه

صدر حديثا :

« چومبي »

قصة طويلة بقلم

أديب نحوي

الثمن ١٢٥ ق. ل. منشورات دار الاداب